اللغة
العربية
وآدابها

المفارقة فى أدب طه حسين

" دراسات فى جنة الشوك "

د. نجوى محمود حسين صابر
المدرس بقسم اللغة العربية وآدابها
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

يُعد هذا الفن الأدبي الذي جاء به د. طه حسين "في جنة الشوك" فنًا نثريًا جديدًا يضاف إلى فنون النثر العربي، لم يعرفه العرب في نثرهم من قبل.[١]

ولعل د. طه حسين قد سبق إليه لأنه كان مطلعًا على الآداب الغربية قديمها وحديثها، واستطاع أن يستعير منها هذا اللون الأدبي الجديد القديم . ولئن كان العرب القدماء لم يعرفوه نثرًا، لقد كانوا يعرفونه شعرًا، عند بشار وحماد ومطيع، وبعض أصحابهم في البصرة والكوفة.[١]

وهذا الفن هو فن "الإبيجراما" وليس له ترجمة عربية شائعة*، وقد آثر طه حسين أن يذكر المصطلح بحروف عربية، دون أن يضع له مقابلا عربيًا ، وقد اشتق اليونانيون، واللاتينيون هذا الاسم وأخذوه من فن النقش على الأحجار، حيث كان القدماء ينقشون على قبور الموتى، وفي معابد الآلهة أبياتًا شعرية تعبر عن أغراض خاصة بهم، ثم بدأ هذا الفن يتطور حتى ابتعد عن الأحجار، وصار فنًا مرويًا على الشفاه، ثم احتوته الكتب. وإذا كان هذا الفن- الإبيجراما – قد بدأ بالنقش على الأحجار، فقد صار بعد ذلك الفن الذي يطلق على كل شعر قصير، ثم خصص بالشعر القصير الذي يصور عواطف الحب، أو نزعات المديح أو الهجاء، ثم غلب عليه الهجاء في نهاية المطاف عند الإسكندريين، وشعراء روما، وإن لم يخلص تمامًا من الغزل والمدح ، وكان هذا حتى العصر الحديث، حيث لم يعد الشعراء الأوربيون يطلقون هذا الاسم إلا على الشعر القصير الذي يرمي إلى النقد والهجاء.[٢]

ويتميز هذا الفن بأنه شعر قصير، وهو على درجة عالية من التأنق في اختيار ألفاظه، فهي ترتفع عن الألفاظ المبتذلة، ولا تسمق فتبلغ اللفظ الرصين

---

[١] د. طه حسين : جنة الشوك ص١٥ دار المعارف ط١٠ .

* وضع له د. مجدي وهبة عدة مقابلات عربية هي : العبارة المنقوشة ، والمقطوع اللاذع ، والحكمة الساخرة ، والملحة الذكية ، ولكن واحدًا منها لم يعرف مصطلحًا دالا على هذا النوع الأدبي بين الباحثين انظر: د. مجدي وهبة : معجم المصطلحات الأدبية لبنان ١٩٧٤.

[٢] السابق ص١١،١٢ .

الذي يقصد إليه الشعراء الفحول في قصائدهم الكبرى، وإنما هو شئ بين هذا وذاك، غير مبتذل كي يفهمه الناس جميعًا فتزهد الخاصة فيه، ولا يرتفع حتى لا يفهمه إلا صفوة المثقفين الصفوة الذين يألفون لغة فحول الشعراء.[1]

ثم تضاف إلى هاتين الصفتين اللغويتين صفة ثالثة تتصل بالمعنى في "الإبيجراما"، وهي أنه يجب أن يكون المعنى ممثلاً لأثر من آثار العقل والإرادة والقلب جميعًا[2]، ولعل هذا أن يكون مخالفًا لما رأته د. نبيلة إبراهيم من استبعاد القلب والعاطفة من المفارقة.[3] ولعلي أجد أن ما رآه د. طه حسين أقرب إلى الشمول حيث يكون الأثر الفني مزاجًا من القلب والإرادة والعقل، وأن يحكم كل هذا ذوق واع ، فأثر العقل فيه أنه نقد لاذع ، أو هجاء موجع، غير خاضع لعاطفة هوجاء أو هوى ، وأثر الإرادة فيه أنه لا يأتي عفو الخاطر، وإنما يقصد إليه الشاعر قصدًا، ويحتشد لأدائه وتجويده، أما أثر القلب فيه فهو أن يفيض عليه بعضًا من حيويته وحرارته، وأن يخلع عليه قوة ليقبل على الخير، أو لينفر من الشر في حالتي الرضا والسخط . ولكي يتأتى للعمل الأدبي ما يطمح إليه صاحبه، لابد أن يصح التعاون والالتحام بين كل من القلب والعقل والإرادة والذوق.[4]

ويجدر بالذكر أن المقصود بهذا البحث ليس الحديث عن فن "الإبيجراما" نفسه، بل عن المفارقة فيه – كما جاءت في كتاب د. طه حسين : جنة الشوك– والمفارقة لا شك جزء منه ، بل هي ثمرته المرجوة ، فغالبًا ما تنتهي

---

[1] د. طه حسين : جنة الشوك ص١٢،١٣.
[2] د. طه حسين : جنة الشوك ص١٤ .
[3] د. نبيلة إبراهيم : المفارقة مجلة فصول ص١٢المجلد السابع عدد ٣،٤ إبريل – سبتمبر ١٩٨٧.
[4] د. طه حسين : جنة الشوك ص١٤ ، وانظر د. عز الدين إسماعيل : دمعة للأسى ودمعة للفرح ص١٢.

"الإيجراما" بنوع من المفارقة irony* ، والمفارقة ظاهرة أدبية تعتمد على لعبة لغوية ماهرة بين طرفين صانعها وقارئها ، فصانع المفارقة يقدم للقارئ نصًا لا يقصد به المعنى الذي يدل عليه ظاهر لفظه ، بل معنى آخر يغلب عليه أن يكون ضدًا له، معتمدًا على أنّ القارئ سوف يفطن إلى المعنى المراد دون أن يخدعه الظاهر.

إذن فالمفارقة تعد لغة "اتصال سري" بين الكاتب والقارئ ، وقد تكون في جملة واحدة ، وقد تشمل النص كله.[١]

وترى د. نبيلة إبراهيم "أن ليس كافيًا أن نعرف المفارقة بأنها الكلام الذي يقول شيئًا ويعني غيره – بل هي رفض للمعنى الحرفي للكلام لصالح المعنى الآخر، أو بالأحرى المعنى الضد الذي لم يعبر عنه."[٢]

ولعلها أن تكون كذلك تعبيرًا لغويًا بلاغيًا يرتكز على العلاقة الذهنية بين الألفاظ، أكثر مما يعتمد على العلاقة النغمية أو التشكيلية، وهي أيضًا وسيلة أسلوبية فعالة للتهكم والاستهزاء.[٣]

فالمفارقة إذن صيغة من صيغ التعبير، تفترض في المخاطب فطنة الاستماع: أي أن على المخاطب أن يدرك أن في الكلام معنى كامنًا فيه ، وأن يدرك أيضًا أن هذا الكلام المنطوق – لا يمكن فهمه على المستوى السطحي في

---

* وقد اشتقت من اليونانية (eironeia) بمعنى التظاهر بالجهل ، وفي ترجمتها للإنجليزية بعد ذلك صارت تعني هذا الأسلوب الذي يتعارض فيه المقصد الحقيقي لصانع المفارقة مع المعنى الحرفي الذي يقدمه في الظاهر.
انظر:١١/٢٧٩ Academic American Encyclopedia

[١] انظر : د. نبيلة إبراهيم : المفارقة ص١٣٢-١٣٥، وانظر د. مصطفى السعدني : البنيات الأسلوبية في لغة الشعر العربي الحديث ص٢١٣ منشأة المعارف – الإسكندرية.

[٢] انظر : د. نبيلة إبراهيم : المفارقة ، مجلة فصول ص١٣٣.

[٣] السابق ص١٣٢ ، وانظر : د. محمد العبد: المفارقة القرآنية ، دراسة في بنية الدلالة ط١ دار الفكر العربي ١٩٧٤ ص ١٥،١٧ ، د. سيزا قاسم : المفارقة في النص العربي المعاصر مجلة فصول م٢ ١٩٨٢ ص١٤٤.

ظل هذا السياق المصاحب للنص[١].

وقد تشابكت "المفارقة" مع بعض المصطلحات المجازية البلاغية، مثل المجاز والكناية والاستعارة، ولكن هناك فرقًا جوهريًا يفصل بين المفارقة وغيرها من المصطلحات البلاغية يتمثل في: أن صانع المجاز والاستعارة والكناية يقصد إلى شئ أكثر مما تحمله كلماته، أي يقصد إلى المبالغة في المعنى، في حين أن صانع المفارقة يقصد غالبًا إلى نقيض ما تحمله كلماته من معنى.[٢]

والمفارقة ترتبط أيضًا بكثير من أشكال التعبير الفني ، فهي خليط من فن الهجاء، وفن السخرية، وفن "الجروتيسك" أي الغريب المهوش المضحك.[٣]

وحين يدخل فن من هذه الفنون إلى المفارقة يبتعد عن استقلاليته ليؤدي مع غيره من عناصر المفارقة دورًا جديدًا.[٤]

ولعل أهم وظائف المفارقة السخرية والتهكم للوصول إلى نقد أخلاقي أو تهذيبي، أو لتقويم قيم اجتماعية ساندة.[٥]

ويظل السؤال قائمًا: لماذا يلجأ الكاتب أو الشاعر إلى المفارقة للحديث عما يريد من أفكار وموضوعات؟ والجواب:أنه قد يعمد إلى المفارقة لأنها توفرنوعًا من التأثير بعيدًا عن الوعظ الفج، والإرشاد الممجوج، وكذلك فهي تثيرعقل القارئ وخياله معًا. إنها تُعد وجهة نظر إلى الحياة تنفتح على تفسيرات عدة، لا يعتبر أي منها صحيحًا على إطلاقه، وهي ترى في تجاور المتنافرات جزءًا من بنية الوجود.[٦]

"كذلك فإن الدافع الفني والجمالي هو الذي يمارس الدور الأكبر من ضغوط صنع المفارقة ، فكل ممنوع عند القارئ مرغوب ، والأبعد هو الأجمل ،

---

[١] راجع د. محمد العبد ص١٥-١٧.
[٢] السابق ص٢٩،٣٠ ، وانظر د. ناصر شبانة:المفارقة في الشعر العربي الحديث ص٣٠ ط١ ٢٠٠٢ بيروت.
[٣] انظر : د. نبيلة إبراهيم : المفارقة ص١٣٢.
[٤] انظر : د. نبيلة إبراهيم : المفارقة ص١٣٢.
[٥] د. محمد العبد : المفارقة في النص القرآني ص١٦٦ ، ص١٨.
[٦] انظر : أحمد خريس: المفارقة في مقامات بديع الزمان ص٣٥٨ ، مجلة جذور سبتمبر ٢٠٠٢ ج١٠ م٦، د.محمد العبد : المفارقة في النص القرآني ص٣٥.

والغامض هو ما يسعى القارئ إلى اكتشافه ، ومن هنا يعمل القارئ معوله في جدار البنية اللغوية بحثًا عن كنز المعنى ، ولاشك في أن فرحته لا توصف حينما يعثر على المعنى المفقود"[١]

وقد يعمد المبدع أيضًا إليها عندما يشتد الطغيان ، ويفرض على أصحاب الفكر إرهابًا فكريًا يراد به إسكات الألسنة ، وهنا لا يجد هؤلاء إلا طرقًا غير مباشرة أهمها المفارقة للتعبير عن آرائهم الحرة دون خشية، متخذين من أدواتهم الفنية، والعوامل الاجتماعية والسياسية والتاريخية معينًا ينهلون منه ليوصلوا إلى الناس ما يريدون التعبير عنه.[٢]

ويتحدث د. طه حسين عن ذلك العصر الذي عاش فيه، وكتب فيه كتابه قائلاً: "ولعل عصرنا الحالي أحوج ما يكون لمثل هذا الكلام عن أي وقت خلا – فهو عصر انتقال – ، وعصور الانتقال تمتاز بما يكثر فيها من اضطراب الرأي واختلاط الأمر، وانحراف السيرة الفردية والاجتماعية عن المألوف من مناهج الحياة. وهذا كله يدفع إلى النقد، ويحمل على العناية بإصلاح الفاسد، وتقويم المعوج، والدلالة على الخير ليقصد إليه، وعلى الشر لتتنكب سبيله، وإظهار ما يحسن، وما لا يحسن في صور قوية أخاذة الأثر في النفوس، شديدة الاستهواء للذوق، عظيمة الحظ من ملاءمة الطبع."[٣]

إذن فالمفارقة قادرة على تحقيق هذا الأمر، بما لديها من قدرة على النقد في سرعة وخفة، ودقة وإيجاز، مع جودة في الصياغة. ومن ثم فسيجد القارئ ما يبحث عنه ممتزجًا بشعور من لذة العقل والقلب والذوق واللسان جميعًا.[٤]

---

[١] د. ناصر شبانة : المفارقة في الشعر العربي الحديث ص٧٣.
[٢] د. سعيد شوقي: بناء المفارقة في المسرحية الشعرية ط ٢٠٠١ القاهرة ص٦٦
[٣] جنة الشوك ص٧
[٤] جنة الشوك ص٨

عناصر المفارقة:

تنعقد المفارقة بأربعة عناصر[١] أو خمسة كما يعدها بعض الباحثين.[٢]

العنصر الأول:

لابد أن تشتمل المفارقة على مستويين للمعنى، معنى ظاهري يدل عليه ظاهر اللفظ، ومعنى آخر مستتر خلف هذا المستوى السطحي، وهو المقصود، ويرتبط ارتباطًا وثيقًا بالسياق العام للنص سواء أكان سياقًا لغويًا أم اجتماعيًا، أم تاريخيًا. بل لعل السياق أن يكون أهم ما يعول عليه في تجاوز المعنى الحرفي المباشر إلى المعنى الضمني في أسلوب المفارقة. ولابد أن يدرك القارئ ازدواجية المعنى وأنه منوط به الوصول إلى حقيقة مراد صانع المفارقة ، تساعده في الوصول إليها المؤشرات المصاحبة للمفارقة، والتي من شأنها أن توجه انتباهه نحو التفسير السليم.[٣]

العنصر الثاني:

خاص بأداء صانع المفارقة لها، إذ عليه أن يظهر أسلوبه بريئًا، وأن يتظاهر، وهو يقدم المفارقة ، بالسذاجة ، ويتم له ذلك عن طريقين:

أولهما : المراوغة، من خلال استخدامه الحيل اللغوية حتى يصبح صانع المفارقة كأنه ذات لغوية، وذلك بتحريك اللغة ليثبت بها حقيقة ثم لا يلبث أن يلغيها.[٤] واللغة في المفارقة ذات طبيعة خاصة تتميز بأنها لغة منعزلة لا تعمد إلى الإفهام بصورة مباشرة ، وتظل حائمة حول إشكاليات اجتماعية وفكرية على

---

[١] د. نبيلة إبراهيم : المفارقة ص١٣٣.
[٢] د. سعيد شوقي : بناء المفارقة في المسرحية الشعرية ص٣٨.
[٣] د.نبيلة إبراهيم:المفارقة: ص١٣٣ ، د. سعيد شوقي : بناء المفارقة في المسرحية الشعرية ص٣٨،٣٩ ، د. محمد العبد:المفارقة في النص القرآني ص٣٩ وانظر:د.سيزا قاسم: المفارقة في النص العربي المعاصر ص١٤٤،١٤٣.
[٤] د. نبيلة إبراهيم: المفارقة: ص١٣٩ ، د.سعيد شوقي:بناء المفارقة في المسرحية الشعرية ص٥٦

مستوى المحدود واللا محدود ، ولا يحاول صانع المفارقة أن يحلها.[١]

وثانيهما: "المغافلة" وهو أن يتعمد صانع المفارقة أن يضفي على شخوص مفارقته صفة الغفلة عن إدراك الحقائق.[٢]

ويرى بعض الباحثين أن على صانع المفارقة عدم التحيز لفكرة ما أو لموضوع ما، حتى يكون قادرًا على أن يناور فيُحدث المفارقة.[٣]

ولست أرى هذا الرأي، بل أعتقد أن المفارقة تتم بناءً على وجهة نظر في الحياة، وأن صانعها لابد أن يكون مقتنعًا بمبدأ يدفعه إلى رفض واقع ما ابتغاء تغييره .

على أن كاتب المفارقة لابد أن يكون فطنًا ذكيًا، مبتكرًا سريع البديهة، وأن يكون صاحب قدرة على التعبير بأسلوب بليغ عن معان قد تبدو للوهلة الأولى مبعثرة غيرمتناسقة، وغير مألوفة للعقل. وتتحقق المفارقة على يد فنان يجري في دمه الإحساس العميق بالخدعة الكبرى في الحياة.[٤]

وهذا الكاتب يجب أن يكون– كما ذكرت د.نبيلة إبراهيم– ذاتًا ترانسندنتالية، وذا وعي "ترانسندنتاليا" – أي متساميًا متأملاً – Transcendental وليس تجريبيًا، أي أن يمتلك القدرة على أن يتأمل كل شئ خارج نطاق التجربة والخبرة، ولكن ليس خارج نطاق المعرفة البشرية، بمعنى آخر: هي الذات القادرة على رؤية المفارقة القائمة حولها في موقف من المواقف، أو أمر من الأمور.[٥]

---

[١] د. سعيد شوقي : بناء المفارقة في المسرحية الشعرية ص٨٠

[٢] د. سعيد شوقي : بناء المفارقة في المسرحية الشعرية ص٥٧.

[٣] السابق ص٦٦، وانظر : R.wellek: A history of Modern criticismV.٢.P.١٢-٢٤

[٤] د.سعيد شوقي : بناء المفارقة في المسرحية الشعرية ص٦٦ ، وانظر د. نبيلة إبراهيم : المفارقة ص١٣٥،١٣٦

[٥] انظر : د. سعيد شوقي : بناء المفارقة في المسرحية الشعرية ص٦٣،٦٤، ود. نبيلة إبراهيم: المفارقة ١٣٤

العنصر الثالث :

لابد من وجود "ضحية" ماثلة كي تتم المفارقة، وقد تكون الضحية متمثلة في "أنا" الذات المبدعة، أو في "أنت" أو في آخر، إنها ضحية متهمة وبريئة، ولعلها تدعي لنفسها أشياء مبالغًا فيها، ولعلها أن تكون دائمًا عرضة للهجوم، ولعلها تنطوي على المضحك والمُبكي معًا، ومن ثم فهي تدفع القارئ إلى بسمة خفيفة سرعان ما تتلاشى.[1]

ولابد أن تكون هناك أساليب واضحة للتأثير على الضحية لعل من أهمها السخرية والهجاء والمبالغة. وهنا يحسن بنا أن نشير إلى أن الفارق الأساسي بين هذه الفنون من القول في حالتها الصرف ، وحالتها عند استخدامها في المفارقة، أنها لا تشترط في حالتها الصرف إقامة التضاد عنصرًا جوهريًا ، إذ يمكن أن تقوم بغيره، أما المفارقة فتشترط هذا. هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى "فإن بناء هذه الفنون الصرف يؤدي المعنى الحقيقي مباشرة بشكل لا يقبل التردد ٠٠٠٠على حين أنه في حالة إعادة إنتاجه في المفارقة فإنه يؤدي دوره بحيث تحس بقوة المعنى الظاهر والخفي معًا."[2]

كذلك فإن بناء هذه الفنون الصرف يكون بقصد إلى شن هجوم متعمد على شخص ما، أوأمر، بغرض سلبه كل أسلحته، وتعريته من كل ما يتخفى فيه ويتحصن وراءه، أو لإخضاع الخصم من أجل إراحة النفس المتعبة، في حين أنه في حالة المفارقة لا يقصد إلى تعرية الشخص المهاجم من ادعاءته وأسلحته ٠٠٠ وإنما يظل صانع المفارقة شريكًا للضحية في محنتها.[3]

العنصر الرابع :

يتمثل في حتمية وجود تعارض، أو تنافر في معطيات النص، وأن ثمة

---

[1] د. نبيلة إبراهيم : المفارقة ص١٣٣.
[2] د. سعيد شوقي : بناء المفارقة في المسرحية الشعرية ص٧٨.
[3] د. نبيلة إبراهيم : المفارقة ص١٣٧-١٣٩.

تضاداً، أو تناقضاً يُستشعر بين المستوى الظاهري والمستوى الباطني للكـــلام، وأنه يجب حل هذا التعارض.[١]

العنصر الخامس :

ويتمثل في القارئ المنوط به إدراك المفارقة، وضرورة وجوده كي تتم المفارقة أركانها، إنه يمثل روح المفارقة[٢]، ونلاحظ أنّ بعض الباحثين لم يشترط وجود القارئ بوصفه عنصراً رئيساً لفهم المفارقة واكتمال عناصرها، وإن نصّوا على أهميته.[٣] ولعلي اتفق مع الرأي القائل بأن المفارقة تكتمل بعناصرها الأربعة، وأن المفارقة تقوم، حتى تجد القارئ الواعي القادر على اكتشافها، وهو الوجه الآخر لصانعها، فإن وُجد واستطاع أن يحل شفرة المفارقة[٤]، ويقف على معناها الحقيقي ومغزاها ، فقد اكتمل لها وله النجاح من أقطاره.

أنواع المفارقة:

للمفارقة أنواع كثيرة* ، أهمها :

المفارقة البنائية : Structural irony

وهي تتمثل في التضاد الحاد النابع من موقفين متضادين نابعين من إطارين اجتماعيين مختلفين.[٥]

---

[١] السابق ص١٣٣.
[٢] د. سعيد شوقي : بناء المفارقة في المسرحية الشعرية ص٧٩.
[٣] د. نبيلة إبراهيم : المفارقة ص١٤٠ ، وانظر د. محمد العبد : المفارقة في النص القرآني ص ٢٣،٢٢.
[٤] انظر : د. نبيلة إبراهيم : المفارقة ص١٤٠ وانظر : د. سيزا قاسم : المفارقة في النص العربي المعاصر ص١٤٤.
*Cuddon,J.A: Dictionary of Literary Terms and Literary Theory. Penguin Books. England ١٩٩١.
Gray,M.: A Dictionary of Literary Terms. Long man ١٩٩٢
[٥] أحمد خريس : المفارقة في مقامات بديع الزمان ص٣٦٢.

المفارقة اللفظية : Verbal irony

وهي تقوم على اللعب باللفظ فيقدم الذم بصيغة المدح مثلاً ، أو[1] العكس . وكذلك يكثر في هذا النمط المحسنات البديعية المعنوية واللفظية، مثل الطباق والمقابلة والجناس والتورية.[1] ولعله من الملاحظ في هذه المفارقة أنّ ما يؤكده المتكلم – صانع المفارقة – في ظاهر نصه يختلف عن المعنى الضمني الذي يعنيه بالفعل.[2] بل لعل كلامه يحمل عنصرًا لغويًا أو بلاغيًا يؤدي إلى عكس المعنى ، ويتمثل هذا العنصر في المغايرة.[3]

المفارقة الدرامية : Dramatic irony

ويجب أن يتوفر فيها شروط ثلاثة :

١ – أن يتوتر فيها السرد بسبب غفلة بعض أشخاص المفارقة ، واستغفال بعضهم لبعض.

٢ – يجب ألا يعرف أحد الأشخاص على الأقل ما ينتظره من مصير بشكل محدد دقيق.

٣ – أن يكون جمهور القراء على علم بالوضع الحقيقي ، وبعجز الشخصية عن تقويم الخطأ ، وتصحيحه بشكل سليم.[4]

مفارقة الإلماع : Hint

وتقوم على ملحظ سريع أو نظرة، أو إيماءة تلميحية تجاه شخص بقصد النيل منه، أو تحقيره، والحط من شأنه. فإذا قلنا: "إنه كان ذكيًا في الأيام الأخيرة" فهذا الكلام يدل على أن غباءه هو المألوف الدائم، وأن ذكاءه عابر، وافتراض المتكلم أن غباءه هو القاعدة أدخل الكلام في تضاد مع الافتراض العادي. ومما ساعد على تثبيت معنى المتكلم، وإزالة قناع المفارقة قوله: (فقط) أي أنه لم يكن قبل ذكيًا، بل ظهرت عليه أعراض الذكاء في الآونة الأخيرة، بمعنى أنه كان غبيًا أغلب الوقت.[1]

---

[1] أحمد خريس : المفارقة في مقامات بديع الزمان ص٣٦٢.
[2] د. محمد العبد : المفارقة القرآنية ص٧١، وانظر د. ناصر شبانة : المفارقة في الشعر العربي الحديث ص٤٧.
[3] د. سيزا قاسم : المفارقة في النص العربي المعاصر ص١٤٤.
[4] أحمد خريس : المفارقة في مقامات بديع الزمان ص٣٦٢.

مفارقة المفهوم أو التصور : Conception

ويقوم التضاد في هذه المفارقة على أساس التعارض بين موقف[1] الضحية (المتصور) وسلوكها ومفهومها للأشياء، وهو سلوك خاطئ يثير الانتقاد، وبين ما يجب أن يكون عليه من صحة، وكلما ابتعد الدافع الظاهري المحرك لموقف الضحية وسلوكها عن حقيقة الأمر، اشتد التعارض وحمى وطيس المفارقة.[2]

مفارقة الإيهام :

وتقوم على معنيين أحدهما قريب يوهم أنه المراد ، والآخر بعيد يراد ، تنفي به المفارقة هذا الإيهام وتثبت نقيضه.[3]

روافد المفارقة عند د. طه حسين

تتمثل روافد المفارقة عند طه حسين في ثلاثة روافد :

١ ـ ثقافة عربية صرفة مكنته من امتلاك ناصية اللغة العربية، وإحاطة واعية بتراثها الشعري والنثري ، فقد شب طه حسين على حب الشعر القديم، وبغض للشعر المحدث[4] ، وقد ظهر هذا جليًا وواضحًا في قدرته القادرة على الأداء اللغوي السلس العذب الذي يحفظ على اللغة صحتها وجمالها فيما أورده من "إيجرامات" بلغت مائة وخمسين ، وقد ظهر فيها استثماره للتراث العربي القديم شعره ونثره ، في صياغة مفارقاته وإسقاطها على قضايا المجتمع المعاصر.

وقد تعددت جوانب الأداء اللغوي عند طه حسين، وقد ظهر هذا جليًا في مفارقاته فيما سنرى بعد، وقد ظهر أنّ اهتمامه باللغة لم يصدر عن تصور نظري

---

[1] د. محمد العبد : المفارقة في النص القرآني ص٥٢
[2] د. محمد العبد : المفارقة القرآنية ، دراسة في بنية الدلالة ص١٦٥.
[3] السابق ص١١١.
[4] محمود علي مكي: عصور الأدب العربي ص١٢٧ مجلة "الفكر" العدد ١٤ مارس ١٩٨٩ (د. طه حسين: مائة عام من النهوض العربي) (في الذكرى المئوية لمولده).

منطقي لبنية اللغوية، بل صدر عن نظرة وظيفية اجتماعية[١].

٢ – الثقافة الأوربية: ولعل من أبرز ملامح تأثيرها وقوفه على فن "الإبيجراما" اليوناني النشأة، وإدراكه تطور هذا الفن، ثم قدرته البارعة على نقله إلى اللغة العربية ليجعله وسيلة من وسائل نقده الاجتماعي والسياسي للمجتمع المصري. وكان طه حسين قد درس اليونانية واللاتينية، والتاريخ اليوناني والروماني عندما أوفدته الجامعة طالبًا مبعوثًا إلى فرنسا بين سنتي ١٩١٥-١٩١٩[٢]. وقد انعكست هذه الثقافة بوضوح في كثير من مفارقاته حيث أورد أسماء بعض الشعراء الفرنسيين واللاتينيين مثل مارسيال، وكليماك وجوفينيال، وذكر آراءهم ممتعيًا بهذا كله في مفارقاته الساخرة.

٣ – المجتمع المصري والبيئة الواقعية: لا شك أنّ جلّ الأفكار التي طرحها د. طه حسين والمفاهيم التي أراد انتقادها في مفارقاته لم يأت بها من بعيد، ولكنه استقاها من واقعه الذي يحياه في مجتمعه المصري بشتى اتجاهاته ومناحيه. ويتحدث عن هذا الرافد فيقول: "ومن المحقق أني لم أخترع هذا الكلام من لا شئ، ولم أشتق هذه الصور من الهواء، ولم التمسها في الصين، ولا في اليابان، ولا في بلاد الهند والسند، وإنما أنا أعيش في مصر، وأشارك المصريين في الحياة التي يحيونها، وآخذ بحظي مما في هذه الحياة مما يرضي ويسخط"[٣].

هذه الروافد الثلاثة اتصهرت إذن في فكر د. طه حسين لتكوّن هذه الخبرات الواسعة التي أمدته بمعين لا ينضب استقى منه قدرته على إحداث المفارقة وصناعتها، وقد أضيفت إليها أسفاره المتعددة وخبرته بالحياة والناس من حوله، وممن سبقوه إلى الحياة. يقول طه حسين في ذلك: "وأنا بعد ذلك أعرف أقطارًا من الأرض سافرت إليها وأقمت فيها أو قرأت عنها في الكتب والأسفار، وأنا بعد

---

[١] د. محمود فهمي حجازي : مقال : "فكره اللغوي مجلة "فكر" ص٥٦ العدد ١٤.
[٢] د. محمد شكري عياد : طه حسين والثقافة اليونانية ص١٠٢ مجلة الهلال عدد فبراير ١٩٦٦.
[٣] د. طه حسين : جنة الشوك ص١٧.

هذا وذاك أعرف أجيالاً من الناس عشت بينهم، أو قرأت أخبارهم، وعرفت آثارهم فيما استطعت أن أظهر عليه من آثار الناس في الشرق والغرب.. وأنا واثق كل الثقة بأن كثيرًا من أبناء الزمان قد مروا في هذه الدنيا، وليس عندي من أنبائهم طرف طويل أو قصير، ولكني واثق بأني عرفت الناس، وبلوت أخبارهم وآثارهم إلى حد ما، وتأثرت بما بلوت من ذلك، فسخطت حينًا ورضيت أحيانًا، وأظهرت ما وجدت من السخط والرضا في صراحة واضحة تعفيني من التلميح الغامض."[1]

وبعد: فلعلي قبل أن أبدأ الجانب التطبيقي من البحث في مفارقات طه حسين في "جنة الشوك"، أقف لحظة عند عنوان الكتاب، لأسجل في عنوانه أول مفارقة عمد إليها الرجل، ولعلها أن تكون مفارقة لفظية يرمي فيها ظاهر اللفظ إلى غير حقيقته. فثمة تناقض شاسع بين الجنة والشوك، وأنى يكون للشوك جنة،إنها مفارقة تبعث على السخرية والتأمل. هذه من ناحية، ومن ناحية أخرى فقد وُفق طه حسين إلى اختيارهذا العنوان ليدل به على محتوى كتابه لما يحمله من أحاديث شائكة ومفزعة، بل مثيرة للألم وباعثة على التهكم والسخرية المرة وكلها مسوقة في قالب أنيق من لغة عذبة.

ولعل طه حسين كان أقرب إلى إفهام قرائه لطبيعة ما جاء به في كتابه حين قال: "المقطوعة منه أشبه شئ بالنصل المرهف ذي الطرف الضئيل الحاد، قد ركب في سهم رشيق خفيف لا يكاد ينزع عن القوس حتى يبلغ الرمية ثم ينفذ منها في خفة وسرعة ورشاقة لا تكاد تحس."[2] وقد اختار طه حسين أن تقوم أغلب إبيجراماته على حوار بين الأستاذ الشيخ وتلميذه الفتى لتتيح له حكمة الشيوخ وحماسة الشباب، وتطلعهم إلى المعرفة ألوانًا من المفارقات حفلت بها هذه الإبيجراما ت.

---

[1] د. طه حسين : جنة الشوك ص١٧،١٨.
[2] السابق ص١٥.

وبنا الآن أن ننظر في مفارقات طه حسين ونتعرف أنواعها وخصائصها، ومجالاتها، ونحاول أن نستجلي أهم دوافعها ومقاصدها. [١]

أولاً : مفارقة التصور :

وقد ظهرت في موضوعات متعددة أغلبها قد عُني بالمعاني الأخلاقية والسلوكية :

ومنها ما أطلق عليه طه حسين عنوان "سيرة" يقول فيها :

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ: ما خير سيرة يسيرها الرجل الحازم في أبنائه؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى: يكلؤهم بعنايته، ويشملهم برعايته ، ويحوطهم بعطفه وحنانه، ولا ينتظر منهم بعد ذلك إلا عقوقا.ذلك أجدر أن يسروه أحيانًا ولا يسوءوه أبدًا.[١]

المفارقة في العقوق الذي لا يتوقع حدوثه. وتملأ المفارقة السخرية والمرارة من سلوك الأبناء تجاه الأباء الذي يكشف عن خلل اجتماعي خطير إذ كيف يكون العقوق في مقابل الرعاية والحنان؟ وكيف ينتظر الأب المسرة أحيانا، وكان حريًا به أن يلقاها منهم دائمًا!! لكنه على كل حال إذا توقع منهم ذلك سروه أحيانا ولم يسوءوه أبدًا.

ويبدو تصور المعنى القائم في المفارقة واضحًا بجلاء: رعاية من الأب وعقوق من الأبناء، ويظهر كذلك التعارض بين موقف الضحية (الأبناء) المتصور وهو(رد الجميل) وبين سلوكهم الفعلي الخاطئ الذي يثير الانتقاد (للعقوق). وكذلك تظهرفي هذه المفارقة المقابلة الواضحة بين فعلين متناقضين، فعل الأب، وفعل الأبناء ، وهذا كله من صميم جوهر مفارقة التصور.

ومنها أيضًا ما ورد تحت العنوان: "ملق" ويقول فيها :

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ما بالُ قوم من العلماء يتحسسون من رأي

---

[١] د. طه حسين : جنة الشوك ص١٢١،١٢٢.

الحكام في العلم، وليتخذوه لأنفسهم رأيا.

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : يريدون ألا يستأثر الناس من دونهم برضا الحكام.[١]

المفارقة هنا معقودة على أن العلماء يتلمسون رأي الحكام في العلم، أي أنّ أهل الاختصاص يأخذون ممن ليسوا مختصين رأيًا وعلمًا، وذلك بسبب النفع الزائل! وكان حريًا بالحكام أن يتلمسوا رأي العلماء، وليس العكس. ويظهر في هذه المفارقة الاستفهام التعجبي، وهو أحد الوسائل في مفارقة التصور.

ومنها ما أطلق عليه طه حسين "وقار" :

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : أترى إلى وقار فلان حين يسعى ؟ إن الناس ليعجبون بما يصطنع من الأناة والمهل.

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى: لو استطاع أن يسعى وهو واقف ، وأن يتحرك وهو ساكن لفعل.

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ: ليته يأخذ نفسه بمثل ما يأخذ به جسمه من الوقار![٢]

تبدو المفارقة في قوله : "ليته يأخذ نفسه بمثل ما يأخذ به جسمه من الوقار" استخدام لفظة ليته دلت على ما لم يعلنه ظاهر اللفظ من أن هذا الوقار ظاهري مصطنع، وأنه لا يمس جوهر شخصيته "الضحية" فالمفارقة في كون فلان هذا مهتما باصطناع شئ في غيبة ما هو أهم، أعني اتزان النفس والأخلاق والسلوك، وهذا ما يعرى منه.

ويظهر التعارض واضحًا بين فعل الضحية "فلان" وسلوكها الظاهر، وبين موقفها النفسي المختلف تمامًا عما تعلنه. ولعلك لاحظت أن طه حسين لم يجعل حكمة الشيوخ مصدر المفارقة دائمًا، بل جعل للشباب حظًا منها.

---

[١] السابق ص٩٤.
[٢] د. طه حسين : جنة الشوك ص٢٩.

ومنها أيضًا ما عنوانه : "إخاء" :

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ: إن الشاعر يخيرنا بين الوحدة واحتمال الإخوان على علاتهم حين يقول :

فعش واحدًا أوصل أخاك فإنه مقارفُ ذنبٍ مرةً ومجانبه

فأي الأمرين تحب لي أن أختار؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى: إن الشاعر لم يخيرك، وإنما ألزمك الخصلة الثانية، فأنت لا تستطيع أن تنسلّ من الحياة الاجتماعية، كما لم يستطع أبو العلاء أن ينسلّ منها. فاحتمل الحياة الاجتماعية كلها، واصبر لما فيها من المحن.

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : وترى إخاء الإخوان محنة؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : أي محنة !

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : كيف ذاك ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى: إذا وفى لك الإخوان امتحنت في وفائهم، وفرضتْ عليك المروءة ألا تفتر ولا تبطر، ولا تستغل الوفاء فتشق عليهم بما لا يطيقون. وإن تنكر لك الإخوان امتحنت في تنكرهم، وفرضت عليك المروءة ألا تقسو ولا تظلم، ولا تتجنى ولا تنتظر منهم فوق ما يطيقون. وأنت ممتحن بعد ذلك في نفسك، تفرض عليك المروءة أن تفي لهم إذا وفوا، وتصفو لهم إذا صفوا، وتعرفهم حين ينكرونك وتنصحهم حين يغشونك، وتبرهم حين يغدرونك، وتعطيهم أكثر مما يعطونك، وتسير من إخائهم على مثل الشوك. صدقني! إن إخاء الإخوان محنة لا يثبت لها إلا ألو العزم.

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : فإني أوثر الوحدة.

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : هيهات ! تلك أمنية تبتغي و[illegible][1]

ظاهر أن طه حسين هنا اعتمد على الشعر العربي القديم في نسج مفارقته،

---

[1] جنة الشوك ص٣٢.

والمفارقة تظهر في تصور موقفين متعارضين يرتكزان على التجني والتسامح.

وتبدو المفارقة في: أنَّ على الرجل أن يصل إخوانه وقد أنكروه، وأنَّ عليه أن ينصحهم وقد غشوه، وكذلك أن يبرهم وقد غدروه، وجُمَّاع المفارقة تتركز في أنَّ من يسيرُ في درب الإخاء كمن يسيرُ على الشوك. والأصل فيه عكس ذلك.

المفارقة في أنّ الإخاء محنة ، وهذا ما يفجأ ذهن القارئ ، لأن الأصـــــل في الأشياء يختلف عن هذا ولعلي أشير إلى أن صانع المفارقة قد قصد إلى تقديم المفارقة بشكل واضح يسهل على القارئ فهمه والتقاطه، ولم يترك له فرصة كبيرة لإعمال عقله ليدرك من المعنى باطنًا يعمد صانع المفارقة إلى إخفائه . وفي النهاية يترك القارئَ ممرورًا متعجبًا وساخرًا.

وهذه المفارقة تمثل الإخبار عن التصور إخبارًا صريحًا ، وكذلك تمثل المقابلة المباشرة بين فعلين متناقضين ، فعل الإخوان وقولهم ، وفعل الرجل الصديق وقوله.

ومنها أيضًا : <u>"جمود" :</u>

وتتميز هذه المفارقة بأن اعتمد فيها د. طه حسين على شعر لشاعر لاتيني، واستشهد فيها، ليدعم فكره ورأيه، بنص قرآني.

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ: إني أقرأ في شعر كاتول اللاتيني:"لا تعمل خيرًا ولا تنتظر شكرًا، فقد عم الجحود وأصبح الإحسان هباء! ماذا أقول؟ بل أصبح ثقلاً ومصدرًا للضغينة. لقد بلوت هذه التجربة المرة حين رأيت أشد الناس حقدًا عليّ وبغضًا لي مَنْ كان يراني منذ حين مصدر نعمته وحاميه الوحيد."

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : لم تتغير أخلاق الناس منذ قال شاعرك اللاتيني هذا الشعر، ولكنه صاحبُ عاجلة لم ينتظر من الآجلة شيئًا. أما نحن فقد لدينا الله أدبًا آخر، واقرأ إن شئت قوله عز وجل: "فمن يعمل مثقال ذرة خيـــرًا

يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرًا يره"[1]

يتضح من هذه المفارقة الهدف الأخلاقي التهذيبي المبني على فهم للعقيدة الإسلامية التي تعاقب من يعمل شرًا ، وتثيب من يعمل خيرًا.

المفارقة معقودة على أن من كان يدين له بالنعم يصبح حاقدًا له مبغضًا، والمتوقع أن يكون حامدًا له شاكرًا.

وتتضح "مفارقة التصور" في تصورين لمعنيين مجردين، أولهما: ما عليه أخلاق الناس من شر وإساءة ونكران للجميل، والتصور الآخر لواحد من أصول الشريعة الإسلامية المبني على مكافأة الإحسان بالإحسان، وجزاء الإساءة بمثلها. وبالطبع تبنى المفارقة على إظهار التعارض بين موقف الضحية – من أحسن إليه وجحد – وسلوكها الخاطئ مثار الانتقاد، وما كان ينبغي أن تكون عليه.

ومنها أيضًا مفارقة تحت عنوان:"انتصار" وقد بنيت على بيت من الشعر:

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ما الذي يعجب الناس من قول المتنبي:

وإذا ما خلا الجبانُ بأرضٍ طلب الطعن وحده والنزالا

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : يعجبهم منه يا بني أنه يعرض صورة رائعة في دقتها وصدقها وإيجازها لحقيقة إنسانية خالدة ، وهي أن شجاعة كثير من الشجعان، وانتصار كثير من المنتصرين ، وتفوق كثير من المتفوقين ليست إلا تكثرًا وغرورًا . فإذا جاء الخوف قل الشجاع وندر الانتصار، وأصبح التفوق أمنية لا تنال إلا في عسر شديد . وليتك تقرأ قصة "دون كيشوت" للكاتب الإسباني "سرفنتس" أو قصة "ترتاران دي ترسكون" للكاتب الفرنسي "الفونس دوديه" لتعلم أن هذين الكاتبين العظيمين لم يزيدا على أن شرحا قول المتنبي.[2]

المفارقة معقودة على بيت "المتنبي"، وهذا نمط من أنماط المفارقة عند د.طه حسين، حيث يعقدها على بيت من الشعر.

---

[1] جنة الشوك ص٦٥.
[2] جنة الشوك ص٦٥.

المفارقة في أن يطلب الجبان القتال حيث يتوقع منه أن يتوارى ويبتعد عنه، وليكتمل للمفارقة جمالها يكمل الشاعر قوله بأنّ هذا الجبان يريد القتال[١]، ولكن حيثما يكون الميدان خاليًا، أي هو قتال زائف يخدع نفسه به، لأنه لا يحارب عدوًا، بل يحارب الهواء، ولعل أمثاله كثيرون في كل ميادين الحياة، وقد ظهر التصور للمعنى المجرد وازداد جلاء بشرح طه حسين له. ولعلي هنا أنوه بالتقاء الفكر الإنساني على حقيقة واحدة، فهذا سرفنتس، والفونس دوديه لم يكن كلامهما إلا شرحا لبيت المتنبي، أو كالشرح له.

وقد اهتم طه حسين أيضًا بإحداث "مفارقات التصور" في الموضوعات السياسية.

ومنها ما جاء تحت عنوان: "طموح" وقد ختمها بنص من القرآن الكريم.

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ: ما بال فلان يؤلب على الحكومة وهولها صديق.

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى: ملّ مكان الصديق وطمع في مكان الزميل.

قال الطالب الفتى: وتراه يبلغ ما يريد؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى: ولم لا؟ إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل.[*]

المفارقة في أنه يؤلب عليها وهو لها صديق، وحريّ به أن يساندها ويؤيدها ولكن حين تضاربت المصالح اختلت الموازين وانعدمت القيم لأنها غير أصيلة. وهو يبتغي شيئًا ليس من حقه، فمثله مثل سارق، والسخرية في المفارقة تصل إلى ذروتها بقوله: "إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل"* أي أن هذه القصة قديمة مكررة فعلها قبله من هم على شاكلته، ومن الملاحظ أنه قد وظف النص القرآني لإبراز المفارقة على نحو غير مباشر.

ومنها : "توحيد"

---

[١] السابق ص١٢٥.

* سورة يوسف الآية ص٧٧.

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ: أليس مما يملأ القلوب غبطة، والنفوس رضا أن نرى مصر تعمل على توحيد كلمة العرب؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى: بلى، وأدعى من ذلك إلى الغبطة والرضا أن توحد مصر كلمة أبنائها.[١]

المفارقة فيمن يعمدون إلى توحيد غيرهم وهم عاجزون عن توحيد أنفسهم، وهو أولى بهم.

يشيع جو من التهكم الواضح من هذا الموقف يدفع القارئ إلى ابتسامة خفيفة تدرك التهكم الذي يلوح من المفارقة وفي هذا النمط من أنماط المفارقة يظهر رأي صانع المفارقة الحقيقي بعد ذكره للرأي الأول الظاهري. فهو لا يترك للقارئ فرصة استنباط ما يمكن أن تحمله المفارقة من معنى كامن ، بل يزيل له القناع ويتركه ليسخر ويتهكم. وتظهر المقابلة بين سلوكي الضحية "مصر" بشكل غير مباشر . فالسلوك الأول يظهر في رغبتها في توحيد شمل العرب ، والسلوك الآخر غير المباشر هو المستنتج وهو عجزها عن توحيد ذاتها وأبنائها.

ومنها ما وضع له عنوان "رعية":

وقد استثمر فيها حكاية من التراث ، وعززها بآية قرآنية :

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ: قرأت في بعض الكتب أن المنصور قال لبعض قواده: صدق الذي قال "أجع كلبك يتبعك، وسمنه يأكلك. فقال له أبو العباس الطوسي: أما تخشى يا أمير المؤمنين إن أجعته أن يلوح له غيرك برغيف فيتبعه ويدعك"

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى: عفا الله عن المنصور وجليسه! فقد شبها الناس بالكلاب، والله عز وجل يقول": "ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا".[١]

---

[١] جنة الشوك ص٩٣.

تتمثل المفارقة في تشبيه المنصور الرعية بالكلاب ، وقد كرمهم الله وفضلهم على سائر مخلوقاته[٦]. هما تصوران متضادان، تصور المنصور والذي يتضاد مع التصـــور
الثاني وهو حقيقة الإنسان كما كرمه الله. وتظهر مفارقة التصور بوضوح مـــن خلال المقابلة بين هذين السلوكين أو التصورين.

وقد أورد طـه حسين العديد من مفارقات التصور في الموضوعات الموصولة بالقيم الاجتماعية، ومنها ما ورد تحت عنوان: "عقوق" وفيها يستخدم د. طه حسين معرفته وثقافته التاريخية ليستقي منها مفارقته.

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ: ألا تحدثني عن سنمار هذا الذي كثر الحديث عنه في هذه الأيام: من هو؟ وما شأنه؟ وفيم يكثر الناس عنه الحديث ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى: "زعموا يا بني أنه رجلٌ رومي، بنى للنعمان بن المنذر قصرًا أو قصرين لا أدري، فلما أتم عمله على أحسن وجه وأكمله، رضي النعمان عنه، ولكنه أشفق أن يبني لغيره من الملوك مثل ما بنى له، فأمر به فألقي من أعلى القصر فاندقت عنقه فمات. والناس يضربونه مثلا لمن يقدم إلى الناس خيرًا وإحسانًا فيجزونه بالشر والمساءة. ولكنْ في الدنيا أفرادًا كثيرين يمكن أن يسمى كل واحدٍ منهم سنمار، ولكنه يلقى من حالق فلا تندق عنقه، تستطيع أن تسميه سنمار الخالد، لأنه لا يبني لأصحاب السطوة والبأس، وإنما يبني للشعوب، ولأنه لا يبني للشعوب دورًا ولا قصورًا ولا شيئا من هذه الآثار التي يبلغها البلى ويدركها الفناء، وإنما يبني لها فنًا وأدبًا وفلسفة وعلمًا وإصلاحًا. ألا تذكر مصارع النابغين من الأدباء والعلماء والفلاسفة ألا ترى أنك لا تزال تستمتع بآثارهم؟"[٧]

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ: وسيستمتع الناس بعدنا بآثارهم حتى يـــرث

---

[٦] سورة الإسراء آية ٧٠.
[٧] جنة الشوك ص٥٠،٥١.

الله الأرض ومنْ عليها.[١]

في هذا النص ألمحُ مفارقة كبرى ومفارقات صغرى متعددة فالمفارقة الكبرى معقودة بين سنمارين إن جاز التعبير، كلاهما بنى مجدًا، ولكنهما لم ينالا مصيرًا واحدًا، لاختلاف نوع المجد، وفي النهاية تتحسم المفارقة لتعزز مجد سنمار الثاني الذي بنى للشعوب فنًا وعلمًا وأدبًا، فلم يقدر عليه أحد لأن عطاءه لا يمكن حجبه عن الناس.

وفي ثنايا المفارقة الكبرى مفارقات عديدة جزئية، مثل أن يلقي من حالق ولا تندق عنقه، وأن يُساق إليه الشر فلا يؤذيه، ويكاد له الكيد فلا يبلغ منه شيئًا،والمتوقع أن يؤذى ويكاد له،ثم مفارقة معقودة في قوله: سنمار الخالد وأنّى يخلد إنسان ؟ بل تخلد آثاره إن استحقت الخلود ، وهنا يريد صاحب المفارقة أن يُعلي من شأن الفنون والآداب والعلوم.

ومنها ما ورد بعنوان "تصوير" : يقدم فيها طه حسين ثقافة وتراثًا لاتينيًا متمثلاً فيما جاء به الشاعر جوفينيال:

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ: لا أعرف شيئًا أبرع، ولا أبلغ، ولا أدق في تصوير بؤس البائسين، وثراء المثرين، والتفاوت المخزي بين الطبقات من هجاء "جوفينيال".

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى: ألا أدلك على شئ هو أبرع، وأبلغ، وأدق تصويرا لذلك من هجاء "جوفينيال"؟ انظر إلى حياة المصريين.[٢]

المفارقة في أن واقع حياة المصريين أشد قسوة وبؤسًا من خيال الشاعر الذي يعمد إلى الإغراق في المبالغة لتصوير ما هو فوق الحقيقة والخيال من تناهي الفقر وتناهي الغنى في آن واحد. وهو ما يدعو إلى السخرية المرة.

---

[١] جنة الشوك ص٣٩، ٤٠.
[٢] جنة الشوك ص٥٦.

ثانيًا : المفارقة اللفظية :

في الأخلاق والسلوك

ومنها ما ورد تحت عنوان "تجن" اعتمد فيها طه حسين على التراث بذكره مقولة للإمام الشافعي، ومقولة في العقيدة الإسلامية تقول "الضرورات تبيح المحظورات" وإن كان قد وظفها بشكل مختلف قال: "تلقاهم من المدارس الثانوية لا يحسنون شيئًا، فتعهدهم حتى أحسنوا أشياء كثيرة، وحتى ظفروا بما يظفر به الشباب الممتازون في الحياة الجامعية من درجات وألقاب." ثم تعهدهم حتى اطمأنوا في الحياة إلى ما يحبون.

وكانوا لهذا كله ذاكرين شاكرين، وكانوا من هذا كله متزيدين، حتى لم يجدوا سبيلا للمزيد. ثم أزور عنه السلطان فازوروا عنه، وقالوا: جفوتنا حين كان يحسن أن تصلنا.

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ما أعرف أنهم لقوا منك جفاءً أو إعراضًا.

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى: "ليس المهم أن تعرف أو لا تعرف، وإنما المهم أن تعلم أن كلمات التجني والتعلل والتكلف لم توضع في اللغة عبثًا، وإنما وُضعت لتدلَّ على معان والمعاني لا تقوم بأنفسها ، وإنما تقوم بأنفس الناس"

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ: "أليس قد علمنا المعلمون في الكتاتيب أن الإمام الشافعي كان يقول: من علمني حرفا صرتُ له عبدًا ؟"

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى: "بلى ولكن الحياة قد علمتنا أن الضرورات تبيح المحظورات. ومن المحظورات أن تجفو من جفاه السلطان ، فقد تصدك صلته عن بعض ما تحب، وتصرف عنك بعض ما تتمنى"[1]

المفارقة تتعقد في جوابه عن السؤال في الفقرة الأخيرة من النص: "بلى ولكن الحياة قد علمتنا أن الضرورات ....."

---

[1] جنة الشوك ص٤٢،٤٣.

فمقولة صانع المفارقة هذه لا يقصد بها ما يدل عليه ظاهر لفظها، بل العكس. وهذا من صميم المفارقة اللفظية.

وصانع المفارقة يقدم معنى لا يُختلف حوله لأنه قاعدة فقهية، أعني قوله "الضرورات تبيح المحظورات" ولكن أية ضرورات؟ وأية محظورات؟ هل جفاء من جفاء السلطان يُعد في المحظورات التي تبيحها الضرورات؟

وتشتد وطأة المفارقة بإدعاء "الضحية" ما ليس صحيحًا في الحقيقة حين تقول: "وقالوا جنونا حين كان يحسن أن تصلنا"،وكذلك بما أورده التلميذ من قول الإمام الشافعي، ليعمق الهوة بين ماهم عليه، وما كان ينبغي أن يكونوا عليه.

ومنها المفارقة التي وردت تحت عنوان مثل :

ويقدم فيها طه حسين مثلاً عربيًا في بيت شعر فيقول :

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : فسرّ لي هذا المثل العربي القديم :

البسْ لكل حالةٍ لبُوسها إمّا نعيمها وإمّا بوسَها

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : تريد تفسير الجد أم تفسير الهزل ؟

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : أريد تفسير الجد.

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : فكن حرًا كريمًا إن أذنت لك نظم الحكم أن تكون حرًا كريمًا، وكن عبدًا ذليلاً إن اقتضتك نظم الحياة أن تكون ذليلاً، واتخذ لنفسك ثوبين: ثوب النعيم تلبسه حين يؤذن في الناس بالحرية، وثوب البؤس تلبسه حين يؤذن في الناس بالرق. وأي الثوبين لبست، فكن عنه راضيًا وبه محبورًا.

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ: فإن أردت تفسير الهزل؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى: فكن رجلاً حرًا كريمًا لا تبطره النعمة، ولا

تغض منه النقمة. وإنك لتعلم أن الذين يحسنون الهزل قليلون.[١]

قامت هذه المفارقة على ذكر مالا يقصده صانعها من ظاهر لفظه وهذا من لب المفارقة اللفظية، وقد بدل في موقعي الكلام، فما جاء به على أنه الجد هو الهزل بعينه- كما يراه ويقر في ضميره، وقد تركه لفطنة القارئ واستنباطه له من خلال السياق ومعرفته بمنطق الأشياء والحياة- وما جاء به على أنه الهزل هو الجد بلا شك.

والتهكم والسخرية يظهران بوضوح للقارئ، وتُظهر المفارقة هذا الوضع المتردي لسلوك كثير من الناس إما رغبة وإما رهبة وإما تملقا.

ومنها ما جاء تحت عنوان "رقيّ":

"ويقدم فيها طه حسين قولا مأثورا" يجعله مدار الحديث

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ: ألم نكن نلقن في نضرة الصبا أن من طلب العلا سهر الليالي؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى: ذلك حين تكون العلا غالية بعيدة المنال، فأما حين ترخص فإنها تنال بأيسرَ من سهر الليالي.

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ: وما ذاك ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى: إسداء الثناء إلى غير الأكفاء، وإهداء الهجاء إلى ذوي الغناء، وقذفُ المحصنات والخوض في الأعراض بغير الحق، وجفوة الصديق، وخيانة الخليل .

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ: وترى ذلك ثمنا يسيرا؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى: أيسر من الرمل على ساحل البحر، ومن الماء على شاطئ النيل.[٢]

في هذه المفارقة يظهر بوضوح أن صانع المفارقة يسوق معنى ما في حين

---

[١] جلة الشوك ص٩٥،٩٦.
[٢] جلة الشوك ص٥٨،٥٩.

يقصد منه معنى آخر، يخالف المعنى الظاهري السطحي، فهو يهزأ أو يسخر من هؤلاء الذين يعتبرون المعالي تنال بأيسر سبيل إذا اتخذوا لها أحقر الوسائل بإسداء الشكر إلى من لا يستحقه. وبهجاء من لا يجب هجاؤهم لأنهم من الأخيار، وبقذف المحصنات زورًا، وبجنوة الصديق، وبخيانة الخليل، ثم يأتي في النهاية بثالثة الأثافي إذ يذكر سهولة هذا الأمر بالنسبة لهم، فهو أيسر من الرمل على ساحل البحر، وأيسر من الماء على شاطئ النيل، وفي هذا "إلماع" إلى مدى تفشي الفساد وخراب الذمم، وانعدام القيم والأخلاق حين يكون هذا سهلا وكثيرًا إلى هذا الحد.

ومنها : "نزاهة":

"وقد جعل مدار الحديث فيها صورة شعرية للشاعر اللاتيني جوفينيال"

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ :ما أجمل هذه الصورة التي أراها عند الشاعر اللاتيني "جوفينيال" حيث يقول:

"ما أكثر ما تمدح النزاهة، ولكنها على ذلك ترتعد من البرد"

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى: وقد مدحت النزاهة أثناء القرون منذ شاعرك اللاتيني، ولم تمدح قط في عصرمن العصوركما تمتدح في هذه الأيام، ولكنها مع ذلك مقرورة ترتعد من البرد.[١]

حمّل طه حسين كلامه الاستعارة في قوله "مقرورة ترتعد فدفع بالمعنى من اتجاه إلى اتجاه آخر معاكس تمامًا.

المفارقة في كون النزاهة ممدوحة، لكنها لا تجد لها حاميا يمنحها الدفء. وجمال المفارقة جاء من التصوير البياني باستخدام الاستعارة المكنية.

وقد أتى طه حسين بالمفارقة اللفظية في الموضوعات التي تتصل بالسياسة، ومنها ما وضع له العنوان: "رقّق"

---

[١] جنة الشوك ص٦٩.

وكان يشير فيها إلى شئ من معرفته بأبي العلاء المعري، وما يعلمه من اتجاهه ورفقه بالحيوان، وله في هذا فلسفة.

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ: ألم أعلم أن الحكومة قد أصبحت ترأف بالحيوان من أبي العلاء؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى: ماذا تقول ؟ أتراها حرّمت ذبحه وأكله وحفظت اللبن على البقر والشاء، والبيض على الدجاج، والعسل على النحل؟!

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ: لا! ولكنها أذنت فأقيمت ليلة موسيقية ساهرة لمعونة الذين يرفقون بالحيوان.

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى: لو خير الحيوان لاختار الحياة والعافية على الموسيقى والرقص.[١]

المفارقة تبدو في اختيار الحكومة حفلاً موسيقيًا من أجل الرفق بالحيوان، وقد كان الأولى بها أن تحفظ عليه الحياة. أقيمت حفلة لمن يرفقون بالحيوان لا بمن يستحق الرفق، "أي الحيوان" لأنه لايعود على الحيوان من هذا الاحتفال نفع يذكر، فالحكومة تهدر أموال الشعب فيما لا طائل من ورائه.

ويلاحظ بالطبع في هذه المفارقة أن صانعها يؤكد في ظاهر نصه ما يختلف تمامًا عما يحمله في عقله من معنى، وفي العبارة الأخيرة يكشف طه حسين القناع عن المفارقة، فيظهر رفضه لظاهر الكلام ، ولعلّ في كلامه ما يلفت إلى أن الرفق بالإنسان أوجب.

ومن هذه المفارقات أيضًا ما ورد تحت عنوان: "نهضة" : يقول فيها : قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ما تقول في شعب يجرى أمره على جهل الشباب وطيشهم من جهة، وعلى ضعف الشيوخ وحمقهم من جهة أخرى ؟

---

[١] جنة الشوك ص٦٢.

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى: أقول إنه شعب ناهض يسعى إلى المجد بخطو سريع![1]

تظهر المفارقة على نحو غير مباشر، يفهمها القارئ مستعينًا بالسياق وبفهمه لروح الحياة ومنطقها. يقصد د. طه حسين: إنه شعب متخلف يسعى إلى الهلاك بأقصى سرعة. وقد أكد صانع المفارقة في ظاهر نصه عكس ما يرمي إليه من قصد ومضمون.

ومما جاء به من مفارقات تمس القيم الاجتماعية :

ما ورد تحت عنوان : "أفول" :

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ألم تر إلى ذلك النجم لم يكد يشرق حتى أفل.

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : كان يستمد النور من غيره ، فلما التوى عنه مصدر النور عاد إلى إظلامه القديم.[2]

المفارقة في سرعة أفول ذلك النجم، وهي مبنية على عنصر بلاغي يتمثل في الاستعارة التصريحية، فقصد صاحب المفارقة ليس ظاهرًا على المستوى السطحي للكلام، ولعله يقصد شخصًا ما كان موجودًا في المجتمع آنذاك، وكان متسلقًا ومحتميًا بآخر المعي يستمد منه ما يشيعه عن نفسه من بطولات، فلما ابتعد عنه ظهرت حقيقته البائسة، وعاد سيرته الأولى.

ثالثًا : مفارقة الإلماع :

وقد ظهرت في حديثه عن السلوك والأخلاق فيما جعل عنوانه : "نزاهة" :

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : لقد ضرب فلان أبرع المثل في الذود عن نزاهة الحكم والتعفف عن فتاته ومنافعه العاجلة ، والحرص على الاستقامة في القول والعمل ، وعلى نقاء اليد والقلب والضمير.

---

[1] السابق ص٨١.
[2] السابق ص١٢٨.

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى وعلى ثغره ابتسامة مرة حائرة لا تريد أن تستقر: نعم ، بعد أن ملأ يديه بالمغانم والأسلاب.[١]

هذه العبارة الأخيرة هي الومضة الخاطفة التي تمثلت فيها المفارقة. وصوت الأستاذ يظهرها ساخرًا وقد أزال الغشاوة التي حجبت الحقيقة. مدعي الفضيلة والنزاهة يصطنعهما بعد أن ملأ يديه من الأسلاب!! إذن فصوت الأستاذ بهذه العبارة ينفي جميع الصفات والأفعال التي ذكرت من قبل ، ويظهر الشخصية وسلوكها الحقيقي.

وعن القيم الاجتماعية يتحدث طه حسين بما جاء به تحت عنوان "حرية" :

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ: ألم تر إلى فلان ولد حرًا وشب حرًا وشاخ حُرًا، فلما دنا من الهرم أثر الرق فيما بقى من الأيام على الحرية التي صحبها في أكثر العمر؟!

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى: أضعفته السن فلم يستطع أن يحتمل الشيخوخة والحرية معًا، وأنت تعلم أن الحرية تحمل الأحرار أعباءً ثقالاً[٢].

المفارقة تبدو بوضوح في "لم يستطع أن يحتمل الشيخوخة والحرية معًا"، بعد أن نضج وكان المتوقع منه أن يظل متمسكًا بإيمانه بالحرية وتبعاتها إلى النهاية، تبدل في شيخوخته. وهنا الإلماع الساخر إلى المفارقة إذ لا تعارض في الحقيقة بين الحرية والشيخوخة، فالشيوخ قادرون على تحمل الحرية مثلما يحتملها الشباب، لكن صانع المفارقة أراد أن يسوق تعليلاً ساخرًا لتبدل حال الرجل، فعلل ذلك بعدم قدرته على احتمال الشيخوخة والحرية معًا.

وفيما يتصل بالحديث عن الشئون السياسية كتب يقول تحت مسمى "معارضة" :

---

[١] جنة الشوك ص١١٤.
[٢] السابق ص٢٣.

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ: ألم تر إلى فلان يطالب بالجلاء السريع – متى وضعت الحرب أوزارها– إلى أوربا.

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى: إلى أن يلي الحكم أو يشارك فيه.[١]

فلان هذا غير مخلص في طلبه للجلاء، أظهر هذا قول صانع المفارقة:"إلى ان يلي الحكم أو يشارك فيه" حينئذ ستتغير اتجاهاته، وآراؤه. فهو ليس منتميًا إلا إلى مصلحته الشخصية، وهو مستعد لتغيير مواقفه إذا لاح له أي نفع.

رابعًا : المفارقة البنائية :

وقد تناول د. طه حسين القيم السلوكية والأخلاقية والأوضاع الاجتماعية فيما كتبه من مفارقة حملت عنوان "ضمائر":

وقد اعتمد فيها على أحد النصوص القرآنية التي أسهمت إسهامًا فعالاً في تجسيد المفارقة وإظهار مغزاها.

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ: ألا تحدثني عن هذه الضمائر التي تفعل ما تشاء، ثم تستتر وراء أفعالها، وجوبًا مرة، وجوازًا مرة أخرى، فهي دانية نائية، وبادية خافية، وهي ملحوظة غير ملفوظة، ومعقولة غير مقولة، وهي على ذلك تكلف الأساتذة والتلاميذ همًا ثقيلاً، وعناءً طويلا.

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى: ما أنت وهذه الضمائر البريئة النقية إنما هي بنات الوهم، قد فرضها العلماء رياضة لعقول الطلاب، على التحليل والإعراب، وهي لا تؤذي أحدًا من قريب أو بعيد، فإذا علمت علمها، وذلك يسير، فدعها وشأنها، وتحدث عن ضمائر أخرى أشد في حياة الناس خطرًا، وأبعد في أعمالهم أثراء تستخفي في أعماق النفوس عابسة تشيع الابتسام المريب، ومظلمة تنشر الضوء المخيف.

---

[١] جنة الشوك ص٣٨.

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ: لقد عدتَ إلى ما دلبت عليه من الإلغاز، فوضح لي بعض ما تقول!

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى: ما تقول في ضمائر الأطباء حين يعودون المرضى، وفي ضمائر المرءوسين حين يتلقون أمر الرؤساء، وفي ضمائر الطلاب حين يسمعون دروس الأساتذة، وفي ضمائر بعض الأصدقاء حين يبتسمون للأصدقاء؟

وكنت حاضر هذا الحديث، فتلوت قول الله عز وجل*: "وتحسبهم أيقاظًا وهم رقود، ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال، وكلبهم باسطٌ ذراعيه بالوصيد، لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارًا ولملئت منهم رُعبًا"[١]

يظهر في النص طالب يتحدث عما يستشعره من مشكلة في الضمائر النحوية فيلفته صانع المفارقة إلى مشكلة أبشع لضمائر أخرى.

ضمائر بعض الأطباء، والمرءوسين، والطلاب، وبعض الأصدقاء التي تنطوي على تناقض بشع تظهر به خلاف ما تبطن، وقد جسد ذلك طه حسين بقوله "مظلمة تنشر الضوء المخيف"! وهي تفزع من يطلع عليها كما يفزع من يطلع على أهل الكهف.

ما أراده طه حسين بالآية أنه ربط بين الاطلاع على أهل الكهف الذي يصيب الإنسان بالرعب، والاطلاع على هذه الضمائر الخربة الذي يصيبه بالرعب أيضًا، لكنه اكتفى بالإشارة بالآية دون أن يفصح عما يريد تاركًا هذا لفطنة القارئ.

ومن المفارقات التي استثمر فيها التاريخ الإسلامي ما أورده تحت عنوان "معارضة" :

---

* سورة الكهف آية ١٨.
[١] جنة الشوك ص٢٥،٢٦.

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ: إني اقرأ في عيون الأخبار لابن قتيبة أن عمرو بن عبيد مر بجماعة عكوف، فقال: ما هذا؟ قالوا: سارق يقطع ! فقال: لا إله إلا الله، سارق السر يقطعه سارق العلانية فهل تتبنني إلام أراد؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى: كان عمرو بن عبيد زعيمًا من زعماء المعتزلة، وكان زاهدًا في الدنيا مخلصًا للدين، وكان شجاعًا لا يخشى في الحق لومة لائم، وما أراد بقوله هذا إلا أن يصف عامل البصرة، بأنه كان سارقا لأموال المسلمين، يسرقها جهرة لأنه لا يخاف أحدًا، منافقا في إمضاء حكم الله، يعاقب على إثم يسير يستخفي به صاحبه، وهو يقارف أعظم الآثام وأضخمها. فإن أجتمع لك زهد عمرو بن عبيد في الدنيا وحرصه على الدين وشجاعته على مواجهة الحكام بما لا يحبون فانهض بتبعات السياسة، وإن لم تجتمع لك هذه الخصال فالتمس لنشاطك سبيلا أخرى.[1]

تظهر المفارقة في أن هناك سارقين أحدهما متخف، والآخر متبجح يسرق جهرة ، وتصل المفارقة إلى ذروتها حين نرى أن سارق العلن هذا، هو الذي يقيم حد السرقة على سارق السر ، وكان الأولى أن يقام الحد عليه، لكنه محتم بالسلطة!

وقد أورد طه حسين "معارضة" أخرى استخدم فيها شيئا من ثقافته العربية منقولا أيضًا من كتاب عيون الأخبار لابن قتيبة.

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ: وإني أقرأ في كتاب عيون الأخبار لابن قتيبة أن طارقا صاحب شرطة خالد القسري مر بابن شبرمة، وطارق في موكبه، فقال ابن شبرمة :

أراها وإن كانت تُحَبُّ كأنها سحابة صيف عن قريب تقشّعُ

اللهم لي ديني ولهم دنياهم. فاستعمل ابن شبرمة بعد ذلك على القضاء فقال

---

[1] جنة الشوك ص٣٦.

له ابنه: أتذكر يوم مربك طارق في موكبه وقلتَ ما قلت؟ فقال: يا بني، إنهم يجدون مثل أبيك، ولا يجد مثلهم أبوك. إن أباك أكل من حلوانهم وحط في أهوائهم. فهل تتبنني بمغزى هذا الحديث؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى: مغزاه يسير كل اليسر، فقد كان ابن شبرمة كغيره من أخيار الناس الذين لا تطيب أنفسهم عن متاع الدنيا، فعارض السلطان لأنه كان طامعًا في بعض ما عنده. فلما ولي القضاء رضي على السلطان وسخط على نفسه: رضي على السلطان لأنه ولاه، وسخط على نفسه لأنه لم يستطع أن يصبر على الحرمان.

ورحم الله ابن شبرمة! فقد كان له من الشجاعة حظ حسن حين اعترف لابنه بأنه أكل من حلوانهم وحط في أهوائهم، لأنه إن لم يستجب لهم حين دعوه وجدوا غيره ممن يلي القضاء مكانه، أما هو فلن يجد غير السلطان قوة توليه القضاء.

فوازن يا بني بين شجاعة عمرو بن عبيد الذي أيأس نفسه من السلطان فانتهى بمعارضته إلى غايتها وشجاعة ابن شبرمة الذي أطمع نفسه فيما عند السلطان، فانتهى بشجاعته إلى أن تمثل بيتًا من الشعر.[1]

المفارقة بين رضا ابن شبرمة عن نفسه حينما سخط السلطان، وسخطه عليها حين رضي عن السلطان، لأن مخالفة السلطان كانت مبنية على اقتناع بموقفه المبني على الاعتصام بالدين والزهد في الدنيا، وهذا ما يوضحه بيت الشعر الذي تمثل به، ثم ظهرت المفارقة في تخليه عن هذا الموقف إلى نقيض ما كان يتمسك به حين أتيح له شئ من متاع الدنيا الذي كانت نفسه تصبو إليه في الحقيقة.

---

[1] جنة الشوك ص٣٧،٣٨.

وثمة مفارقة أخرى تتمثل في التضاد الحاد بين شخصيتي ابن شبرمة، ومدى شجاعته، وشخصية عمرو بن عبيد وشجاعته، قد أنتجت كل منهما موقفين متضادين تابعين من إطارين اجتماعيين ونفسيين مختلفين.

خامسًا : مفارقة الإيهام :

لم أجد ، من هذا النوع من أنواع المفارقة، في جنة الشوك إلا هذه التي وضع لها طه حسين عنوانًا هو: "مُجون"، واعتمد فيها على شطر بيت من الشعر، يقول فيها :

ما زالت امرأته تظهر له الغيرة حتى أغرته بالإثم فتورط فيه، وما زال هو يلوم ابنه على العبث حتى دفعه إليه، وما زال ابنه ينهي صاحبه عن عشرة خليلة السوء حتى اتخذها له زوجا. أليس من الخير أن يتدبر الناس مجون أبي نواس حين قال:

"دع عنك لومي فإن اللوم إغراء"

فرب مجون أدنى إلى الموعظة من الحكمة البالغة[1].

في هذا النص يُظهر صانع المفارقة إيهام "الضحية" لنفسها بأن اللوم يمنع ارتكاب المنكر من الأفعال، ثم الاختلاف الحادث بين هذا الإيهام، وبين واقع الأمر وحقيقته.

والمفارقة في أن المرأة توهم نفسها أن غيرتها الزائدة على زوجها تمنعه عن غيرها، فإذا بها تدفعه إليها، وظن الأب أن مبالغته في لوم ابنه– وهذا صحيح من وجهة نظره– تحميه من العبث، فإذا هو يقع فيه، ومثله نهى الابن صديقه عن خليلة السوء فإذا به يتخذها زوجا. ثم تبلغ المفارقة ذروتها بأن الحكمة تؤخذ عن أصحاب المجون كأبي نواس الذي لخص هذه التجربة الإنسانية بقوله:"فإن اللوم إغراء"، فرب حكمة تأخذ من أفواه ماجنين .

---

[1] جنة الشوك ص٥٣.

سادسًا : المفارقة الدرامية :

ولم أجد مثالاً في مفارقات طه حسين غير واحدة يتحدث فيها عن السلوك الاجتماعي ، وقد أوردها تحت عنوان "حُلة" :

هم أمير الموصل أن يهدي إلى أحد ندمائه خلعة نفيسة، ثم غضب عليه لبعض الأمر قبل أن تبلغه الهدية. وكان النديم طويلاً في السماء عريضًا في الفضاء. وقد أراد الأمير أن يغيظه فأهدى خلعته إلى نديم آخر كان قصيرًا لا يكاد يرتفع عن الأرض، وضيقًا لا يكاد يشغل من الفضاء إلا حيزا ضئيلاً. وتلقى النديم هدية الأمير جذلان راضيًا. فلما دخل فيها ضاع بين ثناياها، لأنها لم تفصل على قده. فأما الأمير وحاشيته فضحكوا وأغرقوا في الضحك. وأما النديم فلم يشك في أنّ الخلعة قد خلقت له . وأما الناس فقد جعلوا كلما رأوه يشيرون إليه ، ويقول بعضهم لبعض : انظروا إليه ! إنه يرفل في حلة فلان.[1]

تتمثل المفارقة في أن تعطي خلعة النديم الطويل إلى القصير. والمفارقة أن يسعد بها النديم الضئيل ولا يدرك بشاعة منظره، وهو مرتد ثوبًا لا يلائمه. أو لعله خدع نفسه بهذا لأن الحلة هدية من أمير.

والقارئ يدرك المفارقة منذ الوهلة الأولى، ويسود شئ من التوتر في سرد المفارقة بسبب حالة من الترقب والتشوف لرد الفعل المتوقع من النديمين، من حُرم حلته، ومن غاص فيما لا يناسبه. والنتيجة قدر من السخرية والتهكم، من الأمير وحاشيته والقراء جميعًا.

وبعد : فلعلي أشير إلى عدة نقاط لاحظتها ، وأنا بصدد تحليلي لمفارقات د. طه حسين في "جنة الشوك" :

١ – حاولت أن أقدم في كل مفارقة نمطًا مختلفًا عن غيره من حيث استعمال طه حسين للشعر، أو لقصص التراث، أو آي القرآن، أو الثقافة الغربية،

---

[1] جنة الشوك ص٢٩.

وكان هذا معيارًا لاختيار المفارقات بحيث يمثل كل منها نمطًا قائمًا بغني عن نظائره.

٢ - معظم المفارقات انعقدت على نوعين من أنواع المفارقة، أولهما مفارقة المفهوم أو التصور، وثانيهما المفارقة اللفظية.

٣ - دارت موضوعات المفارقة حول القيم والأخلاق والسلوك، وكذلك مست بعض المعاني السياسية الجوانب، وقضايا المجتمع المصري وبعض مفاهيمه وقيمه وأعرافه، وفي هذا ما يشير إلى قدرة طه حسين على النقد الاجتماعي اللاذع.

٤ - ظهرت ثقافة طه حسين بوضوح جلي حيث استشهد في معظم مفارقاته بحكايات من التراث العربي والأدب، واستحضر نماذج دالة من الشعر العربي، بل نراه قد عقد في بعض الأحيان المفارقة على بيت من الشعر. وظهرت كذلك ثقافته الدينية، كما ظهرت معرفته بمعاني القرآن، وحفظه لآياته، فقد تمثلها كثيرًا، كما تمثل أيضًا الثقافتين اللاتينية والفرنسية.

٥ – جاءت مفارقات طه حسين نمطًا مختلفًا بعض الشيء عن المفارقة عند غيره، إذ رأيناه يعمدُ كثيرًا إلى إزالة قناع المفارقة، ليساعد القارئ على إدراك مقصوده، ولعل مما دفعه إلى ذلك أنه كان يقدم هذه "الإبيجرامات" للنشر في الصحف السيارة قبل أن تجمع في كتاب، وإن كانت لا تخلو من مواضع يورد الكلام فيها على ظاهر لفظه ويترك لفطنة القارئ الوصول إلى ما وراء اللفظ من معنى مقصود إليه تتم به المفارقة.

قائمة بأهم المراجع

- أحمد خريس: المفارقة في مقامات بديع الزمان الهمذاني- مجلة جذور سبتمبر٢٠٠٢ ج١٠ م٦.
- أمل نصير: المفارقة في كافوريات المتنبي . قراءة في نصوص مختارة . أبحاث اليرموك م١٥ ٢٤ سنة ١٩٩٧.
- د. سعيد شوقي : بناء المفارقة في المسرحية الشعرية ط١ ٢٠٠١ القاهرة.
- د. سيزا قاسم : المفارقة في النص العربي المعاصر - مجلة فصول م٢ ١٩٨٢.
- د. طه حسين : جنة الشوك دار المعارف ط١٠.
- د. عز الدين إسماعيل: دمعة للأسى .. دمعة للحزن ط١ يناير ٢٠٠٠ القاهرة.
- د. مجدي وهبة : معجم مصطلحات الأدب . لبنان ١٩٧٤.
- د. محمد شكري عياد: طه حسين والثقافة اليونانية مجلة الهلال فبراير ١٩٦٦.
- د. محمد العبد : المفارقة القرآنية ، دراسة في بنية الدلالة ط١ دار الفكر العربي ١٩٩٤.
- د. محمود علي مكي : عصور الأدب العربي ، مجلة فكر عدد ١٤ مارس ١٩٨٩.
- د. محمود فهمي حجازي : طه حسين : فكره اللغوي مجلة فكر عدد ١٤ مارس ١٩٨٩.
- د. مصطفى السحني: البنيات الأسلوبية في لغة الشعر العربي الحديث منشأة المعارف – الإسكندرية.
- د. ناصر شبانة: المفارقة في الشعر العربي الحديث ط١ ٢٠٠٢ بيروت.
- د. نبيلة إبراهيم : المفارقة : مجلة فصول م٧ عدد ٣،٤ إبريل – سبتمبر ١٩٨٧.

- Academic American Encyclopedia
- Cuddon,J.A: Dictionary of Literary Terms and Literary theory. Penguin Books. England ١٩٩١.
- Gray,M.: A Dictionary of Literary Terms. Longman ١٩٩٢.
- R.wellek:A history of Modern. Criticism v.٢.p.١٢-٢٤.